النكسة وغزة: شاهدان على فضيحة العقل القومي العربي



بقلم: عماد عنان...

في مسار التاريخ، ثمة أحداث لا تمر باعتبارها وقائع عابرة، بل تتحول إلى علامات فاصلة بين زمنين؛ تُعيد تعريف الأفكار، وتختبر صلابة المشاريع الكبرى، وتكشف ما كان مستورًا خلف الخطابات والشعارات، فهذه الأحداث لا تُقرأ داخل حدودها الزمنية الضيقة، وإنما بوصفها لحظات كاشفة ومؤسِّسة في آن واحد؛ تهدم تصورات راسخة، وتفتح الباب أمام أسئلة جديدة، وربما تُنهي مرحلة كاملة وتؤذن بميلاد أخرى.

ومن بين أكثر هذه اللحظات حضورًا في الذاكرة العربية، تأتي هزيمة يونيو/حزيران 1967، أو ما جرى

تداوله سياسيًا وإعلاميًا باسم "النكسة"، في محاولة لتخفيف وطأة حدث كان في جوهره زلزالًا عسكريًا وسياسيًا ونفسيًا، إذ لم تكن مجرد فقدان لأرض أو خسارة عسكرية فاضحة، بل كانت صدمة عميقة للوعي العربي، أصابت المشروع القومي العروبي في لحظة كان يعيش فيها ذروة حضوره الشعبي وهيمنته الخطابية.

لقد جاءت النكسة لتضع العقل العربي أمام مواجهة قاسية مع ذاته؛ بين ما كان يُبشَّر به من انتصار ووحدة ونهضة عروبية متقدة، وما كشفته الوقائع من هشاشة في البنية السياسية والعسكرية، وفجوة واسعة بين الحلم والقدرة، وبين التعبئة العاطفية والاستعداد الحقيقي، وعليه لم يكن أثر الهزيمة محصورًا في الجغرافيا التي احتُلت، بل امتد إلى البنية النفسية والفكرية التي تشكلت حول فكرة القومية العربية ذاتها.

ولعل من أبرز النماذج التي جسدت هذا الانكسار النفسي ما ارتبط بالشاعر المصري الكبير صلاح جاهين، الذي ظل لسنوات أحد الأصوات الفنية والشعبية الأكثر تعبيرًا عن الحلم القومي والناصري، قبل أن يجد نفسه بعد الهزيمة أمام انهيار رمزي للفكرة التي آمن بها وغنّى لها، فكانت صدمته، بما حملته من اكتئاب وانكسار، تعبيرًا مكثفًا عن حالة أوسع عاشها جيل كامل رأى في يونيو سقوطًا للحلم قبل أن يكون سقوطًا للجيوش.

واليوم، فيما يستعيد العرب الذكرى لـ 59 لتلك الهزيمة، لم يعد السؤال مقتصرًا على تداعياتها العسكرية أو الأمنية أو السياسية، رغم أهميتها، بل أصبح السؤال الأعمق: ماذا فعلت 1967 بالعقل العربي؟ كيف غيّرت علاقة الجماهير بالشعارات الكبرى؟ وكيف أسهمت في تراجع المشروع القومي العروبي، أو على الأقل في كشف أزماته الداخلية؟ ثم يبقى السؤال الأكثر إلحاحًا: هل ما زال ممكنًا إحياء هذا المشروع بصيغة جديدة، أكثر واقعية ونضجًا، في ظل لحظة عربية مأزومة تتنازعها الانقسامات، والتحولات الإقليمية، وتراجع فكرة المصير المشترك؟

المشروع العربي قبل الهزيمة:

قبل نكسة يونيو/حزيران 1967، ومنذ خمسينيات القرن الماضي على وجه التحديد، كان العرب يعيشون ذروة صعود المشروع القومي، لا باعتباره مجرد أطروحة سياسية أو شعارًا تعبويًا، بل بوصفه خيارًا جامعًا استقر في الوعي العربي الرسمي والشعبي والرمزي، حيث هيمن الخطاب العروبي على المجال العام، وقدّم القومية العربية باعتبارها الإطار الأوسع لفهم المصير المشترك، والقائم على أن العرب أمة واحدة، وأن ما يصيب جزءًا منها لا يمكن عزله عن الكل، بل يستدعي بالضرورة موقفًا جماعيًا ونهضة موحدة للدفاع عنه.

استند ذلك المشروع، في لحظته الصاعدة، إلى مجموعة من المرتكزات الفكرية والسياسية؛ في مقدمتها اليقين بأن العرب يشكلون أمة واحدة، وأن الحدود التي رسمها الاستعمار ليست قدرًا نهائيًا، بل يمكن تجاوزها بإرادة سياسية جامعة، كما قام على قناعة مفادها أن النهوض العربي الحقيقي لا يتحقق من خلال دول متفرقة ومحدودة القدرة، وإنما عبر كتلة عربية موحدة، تمتلك من عناصر القوة البشرية والجغرافية والثقافية ما يؤهلها لمواجهة الاستعمار، والدفاع عن فلسطين، وتحرير ما احتُل من أرضها، وبناء قوة عربية مستقلة عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا.

وفي تلك المرحلة، خصوصًا مع قيام ثورة يوليو/تموز 1952 في مصر، انتقل المشروع القومي العربي من فضاء الفكرة إلى ميدان الفعل السياسي، حين تصدّر الزعيم المصري جمال عبد الناصر المشهد بوصفه

الرمز الأبرز للقومية العربية، ووجد خطابه صداه في عواصم عربية عدة، خاصة في سوريا والأردن وغيرها من الساحات التي تفاعلت شعبيًا وسياسيًا مع المد العروبي، وبذلك لم يعد الخطاب القومي مجرد خطاب دولة بعينها، بل أصبح لغة سياسية عربية واسعة الحضور، تتردد في الإذاعات والصحف والخطب والأغاني والميادين.

وساهمت عدة محطات كبرى في تغذية هذا الصعود وتعميق حضوره في المخيال العربي، وفي مقدمتها قرار تأميم قناة السويس عام 1956، وما تبعه من العدوان الثلاثي على مصر، ثم جاءت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958، رغم قصر عمرها وتعقيدات نهايتها، لتمنح المشروع القومي نموذجًا عمليًا على إمكانية انتقال العروبة من مستوى الحلم والخطاب إلى مستوى الدولة والكيان السياسي.

وارتكز هذا الحلم على عدة وعود كبرى بداية من تحرير فلسطين ومواجهة الاستعمار الإسرائيلي مرورًا بتوحيد العرب سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، وصولا إلى بناء اقتصاد عربي مستقبل وتحقيق العدالة الاجتماعية، كما مُنحت القضية الفلسطينية الأولوية العربية، وطُرحت الوحدة كحل سحري قادر على تحقيق كل الأهداف والطموحات، حينها كان الانتصار المؤكد هو الخطاب المهيمن على الإعلام العربي برمته.

هكذا قدّم المشروع القومي العربي نفسه، في تلك اللحظة، بوصفه بديلًا تاريخيًا عن الدولة القُطرية المحدودة، معتبرًا أن الوحدة والتكتل والاصطفاف القومي هي الضمانة الحقيقية في مواجهة التحديات الخارجية والداخلية، مستندًا في ذلك إلى إرث تاريخي وجغرافي وثقافي مشترك، جعل قطاعات واسعة من العرب تعيش حلمًا استثنائيًا بإمكانية استعادة القوة والكرامة والوحدة.

غير أن هذا الحلم، الذي بدا في لحظته وكأنه يقترب من التحقق، لم يلبث أن اصطدم بقسوة الواقع، حين استيقظ العرب صباح الخامس من يونيو/حزيران 1967، على هزيمة مدوية كاشفة، لم يكن يتخيلها العقل

العربي بالمرة، وضعت كل الرؤى والمشاريع والأفكار، بما فيها المشروع القومي، على طاولة النقاش والتقييم بموضوعية وواقعية.

النكسة وخلخلة الحلم:

في اللحظة التي بدا فيها الحلم العربي وقد بلغ ذروة صعوده، ووصل المشروع القومي إلى قمة حضوره السياسي والشعبي، تهيأت قطاعات واسعة من العرب لمرحلة جديدة تتحول فيها الفكرة من خطاب تعبوي إلى مشروع دولة حضارية إقليمية، تستعيد شيئًا من أمجاد التاريخ العربي والإسلامي، وتعيد إنتاج معنى القوة والوحدة والكرامة في واقع معاصر، جاءت هزيمة يونيو كصدمة فكرية وسياسية ونفسية كبرى، زلزلت أركان المشروع العروبي من داخله، وضربت الفكرة المركزية التي بُني عليها ذلك الحلم: أن الوحدة العربية، والقيادة القومية، قادرتان على تحرير الأرض، وبناء القوة، وانتزاع الاستقلال الحقيقي.

كانت الهزيمة أكبر من قدرة الجميع على التوقع أو الاستيعاب؛ حكومات وشعوبًا ونخبًا وجماهير، ولذلك جاء التعامل معها في البداية مرتبكًا ومضطربًا، تتداخل فيه الصدمة بالإنكار، والذهول بمحاولة التبرير، فيما انتقل الخطاب الرسمي من نفي حجم الكارثة، إلى استيعابها على مضض، ثم إلى تخفيف وقعها، قبل أن يستقر عند اعتراف محاط بلغة عاطفية تسعى إلى احتواء الغضب الشعبي أكثر مما تسعى إلى مواجهة الحقيقة كما هي.

ولم يكن اختيار مفردة "النكسة" بريئًا أو عابرًا في هذا السياق، بل كان اختيارًا سياسيًا محسوبًا، فقد جاءت الكلمة، في خطاب عبد الناصر وضمن الصياغة الإعلامية التي اضطلع بها محمد حسنين هيكل، لتؤدي وظيفة محددة، تخفيف معنى الهزيمة، وإعادة تأطير الكارثة بوصفها تعثرًا مؤقتًا لا سقوطًا شاملًا، فـ"النكسة" في دلالتها اللغوية لا تعني الانهيار النهائي، بل توحي بكبوة يمكن تجاوزها، وبانكسار عابر يستطيع الجسد السياسي أن يتعافى منه.

بهذا المعنى، صنعت المفردة مرآة لغوية مخصصة لرؤية ما أراد الخطاب الرسمي أن يراه الناس، لا ما كشفته الوقائع على الأرض، فالقائد، وفق هذه الصياغة، لم يُهزم بالمعنى الكامل، والمشروع لم ينكسر، والتجربة لم تفشل، وإنما تعرّضت لـ"كبوة" في طريق طويل، أو تعثر مرحلي سرعان ما يمكن تجاوزه بالتماسك والصبر واستعادة المبادرة.

وهكذا حاولت قيادة المشروع القومي امتصاص وقع الهزيمة، والحفاظ على شرعية حضورها السياسي واستمرارية قيادتها للوجدان العربي، غير أن المشكلة الأعمق أن تغيير المفردات لا يغيّر الوقائع، وأن تلطيف الأسماء لا يلغي حقائق الانكسار، فقد كان الرهان على اللغة محاولة لتأجيل المواجهة مع السؤال الأصعب: هل كانت الهزيمة مجرد خلل عسكري عابر، أم أنها كشفت أزمة أعمق في بنية المشروع القومي نفسه، وفي المسافة الشاسعة بين الحلم الذي عاشته الجماهير والقدرة الفعلية على حمايته؟

تفكيك المشروع القومي:

رغم محاولات الاحتواء المتعددة، وما رافقها من استراتيجيات سياسية وإعلامية خاطبت البعد النفسي في الشارع العربي، فإن الهزيمة النكراء استطاعت -بعدما تكشفت ملامحها- وخلال وقت قصير أن تضرب المشروع القومي العروبي في صميم قوته، بل في مرتكزاته الأساسية التي استند إليها في بناء شرعيته وحضوره.

كانت الضربة الأولى موجهة إلى صورة الدولة القومية القائدة، أي مصر الناصرية، التي كانت تمثل في ذلك الوقت مركز الثقل الرئيسي في المشروع العربي، وركيزته السياسية والرمزية الأولى، فقد اهتزت صورة القاهرة بوصفها قائدة تاريخية للعرب، وهي الصورة التي استندت بدرجة كبيرة إلى ما صنعه الإعلام الناصري حول قوة الجيش المصري وقدرته الحاسمة على المواجهة، كان هذا الجيش قد قُدّم للجماهير باعتباره قوة هائلة عصية على الهزيمة، قبل أن تتهاوى هذه الصورة سريعًا أمام وقع الهزيمة الخاطفة، بما حملته من صدمة عسكرية ومعنوية غير مسبوقة.

أما الضربة الثانية، فكانت في جوهر فكرة الوحدة العربية ذاتها، فقبل الهزيمة، كانت الوحدة تُطرح باعتبارها الحل السحري الذي لا يقبل التشكيك؛ إذ كان يُنظر إليها بوصفها النصف الأول من معادلة النصر، متى تحققت حضر الانتصار بالضرورة، غير أن الهزيمة جاءت لتزرع الشك في هذه المسلمة، وتفتح الباب أمام تساؤلات قاسية حول قدرة الأنظمة العربية على التنسيق والتنظيم والعمل المشترك، خاصة مع بروز الخلافات العربية ـ العربية، واتساع الهوة بين المصالح القُطرية والخطاب القومي الجامع، ومن هنا بدأ الخطاب الوطني القُطري يظهر بوضوح أكبر في مواجهة الخطاب العروبي الواسع.

ومن بين المخرجات الأكثر خطورة للهزيمة أنها أعادت ترتيب الأولويات العربية، فلم يعد تحرير فلسطين

والقدس، كما كان مطروحًا قبل 1967، هو الهدف المركزي المباشر في الوعي السياسي الرسمي، بل تقدمت عليه أولوية استعادة الأراضي التي احتُلت في الحرب، من سيناء إلى الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة.

وبذلك تقلص الحلم العربي من مشروع تحرير شامل إلى هدف دفاعي عنوانه العودة إلى ما قبل الهزيمة، بينما انزوى حلم تحرير فلسطين التاريخية إلى مرتبة متأخرة في سلم الأهداف العربية، إن لم يكن قد خرج فعليًا من الحسابات العملية لكثير من الأنظمة.

وفق هذا التحول، دفعت الهزيمة المشروع القومي العربي من مساره الهجومي التحرري إلى مسار دفاعي تعويضي؛ من خطاب الانتصار والتحرير والوحدة، إلى خطاب إزالة آثار العدوان واستعادة ما فُقد، وكان لهذا التحول أثر بعيد المدى، إذ ساهم لاحقًا في صعود بدائل فكرية وسياسية أخرى، سواء على حساب اليسار القومي أو في مواجهة الخطاب العروبي عمومًا، وهو ما انعكس بعمق على سؤال الهوية العربية وحالة الارتباك التي ما زالت آثارها ممتدة حتى اليوم.

غير أن الارتداد الأخطر للهزيمة كان على مستوى العلاقة بين الشارع العربي وأنظمته، فقد شُيّد، بعد يونيو67، جدار كثيف من أزمة الثقة بين الجماهير والحكومات، بعدما انكشفت الفجوة الواسعة بين خطاب رسمي كان يعد بالنصر ويصنع صورة مكتملة للقوة، وبين واقع سياسي وعسكري كشف هشاشة تلك الصورة، ومنذ تلك اللحظة، لم تعد المشكلة في الهزيمة وحدها، بل في انهيار الثقة بين المواطن والحلم الذي وُعد به، وبين الجماهير والمشروع الذي قيل لها إنه قادر على حمايتها وصناعة مستقبلها.

غزة.. شاهد الإثبات والنفي:

بعيدًا عن سلسلة الاختبارات المفصلية التي تعرّض لها المشروع القومي العربي منذ هزيمة يونيو وحتى اليوم، والتي سقط فيها جميعًا، تبدو حرب غزة الأخيرة كاشفةً للحظة أكثر قسوة؛ إذ لم تكتفِ بإظهار عجز هذا المشروع في صورته التقليدية، بل أسقطت ما تبقّى من غطائه الرمزي، وكشفت إلى أي مدى تراجع حضوره الفعلي في السياسات العربية، حتى بدا وكأن شهادة وفاته قد كُتبت رسميًا بصيغته القديمة.

لقد جاءت حرب غزة لتنتزع من المشروع القومي العربي أهم مرتكزاته التي طالما استند إليها في بناء خطابه وشرعيته؛ بدءًا من فكرة أن العرب أمة واحدة يجمعها مصير مشترك، وأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية والتاريخية لهذه الأمة، وأن الوحدة والتضامن هما الطريق الضروري للنهوض، وصولًا إلى اعتبار إسرائيل العدو الأول للأمة، وأن المقاومة، بأشكالها المختلفة، هي سبيل التحرر واستعادة الحقوق.

وكما حدث في أعقاب النكسة، حين جرى الالتفاف على حجم الكارثة بخطاب عاطفي وشعارات مهدئة وسرديات حاولت تلطيف الانكسار، تكرر المشهد بدرجة ما مع حرب غزة الراهنة، فقد حضرت محاولات تبرير العجز باسم الواقعية، وتسويق التراجع بوصفه دبلوماسية، وتغليف الانكفاء السياسي بمفردات الحكمة والحسابات، بل وتقديم التطبيع مع المحتل باعتباره براغماتية سياسية لا خروجًا على مقتضيات القضية والمصير.

وفي هذا السياق، لم تعد فلسطين تُعامل، في الخطاب الرسمي العربي، بوصفها القضية الجامعة التي تتجاوز حدود الدول، بل تحولت في كثير من الأحيان إلى ملف خلافي تتباين حوله المواقف والحسابات، حيث تقدّم الخطاب القُطري على الخطاب القومي، وغلب منطق المصلحة الضيقة على فكرة المصير المشترك، حتى أصبحت البراغماتية شعارًا، والميكافيلية استراتيجية، والحياد الملتبس موقفًا مقبولًا في لحظة كان يفترض أن تستدعي وضوحًا أخلاقيًا وسياسيًا لا لبس فيه.

وهكذا كشفت حرب غزة أن الأزمة لم تعد أزمة موقف عابر أو خلاف سياسي ظرفي، بل أزمة هوية وفاعلية ودور، فقد فقد العرب، بفعل هذا التراجع، جانبًا كبيرًا من قدرتهم على التأثير، وتحوّلوا في ملفات مركزية تخص أمنهم وتاريخهم ومستقبلهم من فاعلين إلى مراقبين، ومن أصحاب قضية إلى أطراف هامشية في معادلات إقليمية ودولية تُدار غالبًا من خارجهم، بينما يدفع الفلسطينيون وحدهم ثمن الانكشاف العربي، وتدفع الأمة كلها ثمن تبخّر مشروع كان يومًا ما عنوانًا للحلم والوحدة والكرامة.

بعث من جديد.. هل من أمل:

من غير الموضوعية اختزال هزيمة يونيو باعتبارها الضربة القاضية الوحيدة التي أطاحت بالمشروع القومي العربي؛ فمشروع بهذا الحجم لم يكن لينكسر على هذا النحو لو كان مكتمل البنية، راسخ المؤسسات، ومحصنًا بأدوات القوة الحقيقية، وما كان له أن يتداعى بهذه السرعة لولا أنه كان يحمل داخله قدرًا كبيرًا من الهشاشة، ويعتمد في جانب واسع منه على خطاب عاطفي تعبوي وشعاراتي، أكثر من اعتماده على بناء سياسي وعسكري ومؤسسي قادر على تحويل الحلم إلى واقع.

من هنا، فإن تحميل الهزيمة وحدها مسؤولية انهيار المشروع القومي يظل حكمًا قاصرًا؛ لأن المشروع كان مثقلًا من الداخل بعوامل ضعفه، ومحاطًا بتناقضاته البنيوية التي ظلت كامنة حتى جاء أول اختبار تاريخي كبير فكشفها دفعة واحدة، غير أن ذلك لا يعني، في المقابل، أن المشروع مات نهائيًا أو اختفى بصورة كلية بعد يونيو، فقد ظهرت لاحقًا إرهاصات لمحاولة النهوض، سواء من خلال حرب الاستنزاف بين عامي 1967 و1970، أو عبر حرب أكتوبر/تشرين الأول 1973، التي أعادت إلى الوجدان العربي بعضًا من ثقته المفقودة، ومنحت المشروع القومي جزءًا من ملامحه القديمة، وإن كان ذلك بزخم أقل وبسياق أكثر حذرًا وواقعية.

لذلك يمكن القول إن هزيمة يونيو لم تكن نهاية المشروع القومي العربي بقدر ما كانت لحظة كاشفة ومفصلية؛ عرّت هشاشته، وكشفت المسافة الواسعة بين الشعار والحقيقة، وبين الحلم والقدرة، وبين الخطاب الجماهيري والبناء المؤسسي، وهي المسافة نفسها التي أعادت اختبارات لاحقة تأكيدها، حين عجز المشروع عن تقديم إجابات عملية أمام أزمات العرب الكبرى، وسقط في محطات متعددة سقوطًا فاضحًا، لا بسبب مؤامرة خارجية وحدها، بل بسبب عجز داخلي عن التجدد، وعن تحويل فكرة المصير المشترك إلى استراتيجية فعلية.

ورغم ذلك، فإن حرب غزة الأخيرة، وما تلاها من حرب أمريكية إسرائيلية ضد إيران، وما أفرزته هذه التطورات من إعادة تشكيل للخريطة الجيوسياسية ليس في المنطقة وحدها، بل في العالم بأسره، قد تفتح الباب أمام مراجعة كبرى لمفهوم المشروعات القومية والإقليمية.

وقد أثبتت هذه التحولات أن القُطرية وحدها لم تعد كافية لمواجهة عواصف المرحلة، وأن المقاربات الفردية للدول تظل هشة وقابلة للاختراق، وأن الاعتماد على مصدر قوة واحد لا يصنع أمنًا مستدامًا، كما أكدت أن بناء تحالفات إقليمية قوية لم يعد ترفًا سياسيًا، بل ضرورة استراتيجية تمثل حائط صد

في مواجهة الفوضى، والتدخلات، وإعادة رسم موازين القوة.

وفي هذا الإطار، ما زال المشروع القومي، سواء في صيغته العربية أو الإسلامية، يمتلك أرضية تاريخية وثقافية وجغرافية يمكن أن تنمو عليها تحالفات قادرة على التعامل مع تحديات المرحلة، شريطة ألا يعود هذا المشروع بصورته الخطابية القديمة، ولا بمنطق الشعارات الكبيرة الخالية من الأدوات، فالمطلوب ليس استدعاء الماضي كما كان، بل بناء صيغة جديدة أكثر واقعية وصلابة؛ تقوم على المصالح المشتركة، والتكامل الاقتصادي، والتنسيق الأمني، والاستقلال السياسي، واحترام خصوصيات الدول دون التفريط في فكرة المجال الحضاري الواحد.

غير أن هذا المسار يحتاج قبل كل شيء إلى إرادة سياسية عربية وإسلامية تمتلك الشجاعة لمواجهة محاولات وأد أي تقارب حقيقي بين دول المنطقة، وهي محاولات استمرت لعقود ونجحت مرارًا في تفكيك كل مشروع وحدوي أو تنسيقي قبل أن يشتد عوده، ليبقى السؤال الأهم اليوم: هل يقرأ العرب الدرس بعد كل هذا الثمن الفادح، أم يواصلون الاكتفاء بردود الفعل، بينما تُرسم خرائط القوة من حولهم ومن فوقهم دون أن يكونوا طرفًا حاسمًا في صناعتها؟